حوار في قضايا فكرية
مع
التيارات الوافدة

obeikandl.com

obeikandl.com

لا بد من مقياس نحتكم إليه

كنت أتحدث مع صاحبي عن ضرورة العودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وقيماً وأخلاقاً،وثقافة وحضارة؛ لنسعد في دنيانا، ونفوز في أخرانا، فإذا هو يقول في صراحة: الحقيقة يا صاحبي أننا في حيرة وبلبلة أمام الدعوات والمبادئ الكثيرة المختلفة، هذه تجرنا إلى اليمين، وتلك إلى اليسار، هذه تشرق وأخرى تغرب، أنت تدعو إلى الإسلام، وثان يدعو إلى القومية، وآخر إلى الاشتراكية.

دعاة الإسلام منهم المتزمت والمتسامح، ودعاة القومية منهم من يوسع ومن يضيّق، ودعاة الاشتراكية منهم من يتطرف ومن يعتدل.

وكل واحد من هؤلاء يضفي على سلعته أجمل الأوصاف، ويبرئها من كل عيب، والقارئون والمستمعون حائرون، إزاء ما يقرؤون من كتب ورسائل ومقالات، وما يسمعون من محاضرات وأحاديث ومناقشات، فقل لي بربك: ماذا يصنع الإنسان أمام هذه المبادئ والأفكار؟ وهذه التيارات من يمين ويسار؟

قلت: وماذا يفعل الناس إذا اختلفوا في طول قطعة من القماش، أو في ثقل مقدار من الحلوى، أو في حجم كمية من القمح؟

قال صاحبي: إنهم يحتكمون إلى معيار اتفقوا عليه، كالمتر مثلاً في قياس الأبعاد والأطوال، والكيلو غرام أو الرطل في تقدير الموزونات، والليتر والقدح في تقدير المكيلات ... إلخ، فيرتفع الخلاف، وينحسم النزاع.

قلت: وهذا ما يجب أن نصنعه أيضاً في الأمور المعنوية، أعني لابد من معيار نتفق عليه ونحتكم إليه، في أفكارنا وآرائنا وقيمنا، فإذا أمرنا جميع، وإذا كلمتنا سواء.

قال صاحبي: ولكن المشكلة هنا فيمن يصنع هذا المعيار العجيب الذي توزن به الأقوال والمذاهب، وتقاس به النحل والمعتقدات، ويعرف به الرشد من الغي، والهدى من الضلال. من الذي يدعي القدرة على وضع هذا المعيار؟ ومن يرضى به إذا ادعى ذلك؟

قلت: أما نحن المسلمين فإن هذا المعيار في أيدينا فعلاً، وليس هو من وضع بشر، فالبشر أعجز من أن يضعوا مثل هذا المعيار. إنه معيار منزل من السماء إلى الأرض، من الخالق إلى الخلق ﴿**كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلَت من لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ**﴾[هود: ١]. «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي»(١). بل إنه من مهمة الرسل الأساسية أن يضعوا هذه المعايير للبشر، ليحتكموا إليها إذا اختلفوا، ويرجعوا إليها إذا انحرفوا، وفي القرآن الكريم: ﴿**كانَ الناسُ أُمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيينَ مبشّرينَ ومُنذرينَ وأنزلَ معهمُ الكتابَ بالحقِّ ليحكُمَ بينَ الناسِ فيما اختلفُوا فيهِ**﴾[البقرة: ٢١٣] ﴿**لقدْ أَرسلْنا رُسلَنا بالبيِّناتِ وأنزَلنا معهمُ الكتابُ والميزانَ ليقومَ الناسُ بالقسطِ**﴾[الحديد: ٢٥].

ولكن العجب أننا لانحتكم إلى هذا المعيار السماوي، إلى الإسلام الذي

---

(١) رواه مالك في الموطأ ٢/٨٩٩،وله شواهد أخرى ذكرها الألباني في سلسلة الصحيحة ٤/٣٥٥ (١٧٦١).

أكرمنا الله به، ورضيه لنا ديناً، بل نبذناه وراءنا ظهرياً، وطفقنا نلتمس الفتوى والحكم من غيره، «ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله»(١).

قال صاحبي مندهشاً: أيلزمنا أن نحتكم في كل أفكارنا وآرائنا إلى الإسلام والقرآن؟ قلت: نعم، بمقتضى إسلامك إلى الله، وإلى رسوله، فهذا معنى (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فإن رضاك بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالقرآن إماماً، يقتضيك الاحتكام إلى الله ورسوله وكتابه، فيما يشكل عليك، وفيما تنازع الناس، أو ينازعونك فيه، ولا يصح بغير هذا إيمان أبداً: ﴿**وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أنْ يكونَ لهمُ الخِيَرَةُ مِن أمرِهم**﴾[الاحزاب: ٣٦]. ﴿**فلا وَرَبِّكَ لايؤمنونَ حتّى يحكموكَ فيما شَجَرَ بينهمْ ثم لايجدوا في أنفسِهم حرجاً مما قضيتَ ويُسلِّموا تسليماً**﴾[النساء: ٦٥].

قال صاحبي: وهل معنى هذا أن نحتكم إلى ما أنزل الله في كل أُمورنا، حتى الاجتماعية والسياسيةوالاقتصادية؟ لا بأس بالاحتكام إلى ما أنزل الله في شؤون الدين، أعني في العقائد والعبادات والأخلاق، أما شؤون الحياة المتغيرة المتطورة، فلماذا لا نحكم فيها منطقنا البشري، أو نقتبسها من تجارب غيرنا؟

قلت: إن تجزئة ما أنزل الله: إلى ديني، وغير ديني، تجزئة مضللة، ولا تقوم على أساس سليم. أتريد منا أن نطيع الله سبحانه إذا قال: ﴿**أَقيموا الصلاةَ**﴾[المزمل: ٢٠] ؛ لأن الصلاة من شؤون الدين؛ فإذا قال: ﴿**وآتوا**

(١) جزء من حديث رواه الترمذي عن علي بن أبي طالب في كتاب فضائل القرآن (٢٩٠٦) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال.

الزَّكاةَ﴾[المزمل: ٢٠] قلنا له: عفواً يا رب، هذا من شؤون المال والدنيا، فدعنا ندبرها وحدنا دون هدايتك ووحيك يا ربنا !!

وإذا قال الله تعالى: ﴿**إنما إلهكُم إلهٌ واحدٌ فاستقيموا إليه واستغفرُوه**﴾[فصلت: ٦] قلنا له: سمعنا وأطعنا؛ فإذا قال: ﴿**إنَّما الخمرُ والميسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشَّيطانِ فاجتنبوهُ لعلكُم تفلِحون**﴾[المائدة: ٩٠] قلنا له: سمعنا وعصينا.. إن تحريم الخمر يا رب خطر على نشاط السياحة، وحجر على حرية الفرد، فدعنا أحراراً في تناولها.

وإذا قال الله تعالى: ﴿**واتقوا يوماً تُرجعونَ فيه إلى اللهِ**﴾[البقرة: ٢٨١] قلنا: يا لها موعظة! فإذا قال قبلها بآيتين: ﴿**اتقوا الله وذرُوا ما بقيَ من الرِّبا إن كنتمْ مؤمنينَ ۞ فإن لم تفعلُوا فأْذنوا بحربٍ من اللهِ ورسولِه**﴾[البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩] قلنا: أما هذه فلا، فإن عصرنا لا يستغني عن الربا؟ وعجلة الاقتصاد لا تدور إلا بالفوائد الربوية.

وإذا قال سبحانه: ﴿**يأيها الذينَ آمنوا كُتِبَ عليكمُ الصيامُ**﴾[البقرة: ١٨٣] قلنا: سمعاً وطاعة؛ فإذا قال في نفس السورة، ونفس السياق: ﴿**يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القِصاصُ في القتلى**﴾[البقرة: ١٧٨] قلنا: هنا لا سمع ولا طاعة، فأمر العقوبات لنا يا رب وليس لك، فدعنا نقرر فيها ما نراه، فنحن أعلم بمصلحتنا منك !!

لا يا صاحبي! إن كل ما أنزل الله دين يجب أن يتبع ويرعى وينفذ، وإهمال بعضه ضار بمجموعه، وهو أشبه شيء بوصفة الطبيب الماهر للمريض، إنها مجموعة متكاملة من الأدوية، ربما كان حذف دواء منها يجعل

ضرر الأدوية الأخرى أكبر من نفعها؛ ولهذا حذر الله سبحانه من ترك بعض ما أنزله من كتاب وحكمة، انخداعاً بتزيين أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة والمشركين. قال تعالى: ﴿**وأن احكُم بينهمْ بما أَنزلَ الله ولا تتبعْ أهواءهم واحذرْهم أنْ يفتنوكَ عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليك**﴾[المائدة: ٤٩]، فحذر من الفتنة عن بعض الأحكام المنزلة من الله، وقد ذم الله قوماً من المنافقين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، وسول لهم الشيطان وأملى لهم، فقال في تعليل ما أصابهم من سخطه تعالى ولعنته: ﴿**ذلكَ بأنهم قالوا للذين كَرِهوا ما نزَّلَ اللهُ سنطيعُكُم في بعضِ الأمْرِ والله يعلمُ إسرارَهم**﴾[محمد: ٢٦].

قال صاحبي: كلامك صحيح، ولكن ليس كل الناس مسلمين، حتى يحتكموا إلى معيار الإسلام، ويحكموه فيما شجر بينهم.

قلت: أما غير المسلمين فلهم حديث غير هذا، ولكني أتحدث مع الذين رضوا بالإسلام ديناً، ولا زالوا يعلنون أنهم مسلمون، وأنهم ينزلون على أحكام الإسلام. أتحدث مع هؤلاء الذين يقرؤون ويسمعون قول الله تعالى: ﴿**وما اختلفتمْ فيهِ مِن شيءٍ فحكمُه إلى اللهِ**﴾[الشورى: ١٠]، ﴿**فإنْ تنازَعتم في شيءٍ فردُّوه إلى اللهِ والرسولِ إنْ كنتُم تؤمنونَ باللهِ واليومِ الآخرِ**﴾[النساء: ٥٩].

أتحدث مع هؤلاء الذين قرؤوا في كتاب ربهم: ﴿**ومَنْ لم يحكُم بما أنزلَ اللهُ فأولئك همُ الكافرونَ**﴾[المائدة: ٤٤]، ﴿**ومَن لم يحكُم بما أَنزلَ اللهُ فأولئك همُ الظالمونَ**﴾[المائدة: ٤٥]، ﴿**ومَن لم يحكُم بما أَنزلَ اللهُ فأولئك همُ الفاسقونَ**﴾[المائدة: ٤٧].

وأحب أن تعلم أن هذه الآيات ليست في شأن الحكام والقضاة فحسب،

بل إنها تشمل كل من حكم في تفكيره وسلوكه مذهباً غير الإسلام، وكتاباً غير القرآن، وموجهاً غير محمد عليه الصلاة والسلام.

فليختر له أحد هذه الأوصاف الثلاثة أو كلها إن شاء، الكفر والظلم والفسق، كما صرحت بها آيات ثلاث في كتاب الله:

ولو كان سهماً واحداً لاتقيته ولكنها سهم وثان وثالث!

مذاهب . . أم عقائد وأديان جديدة؟!

قال صاحبي: رضينا بالإسلام مقياساً لأفكارنا وقيمنا، وبالقرآن حكماً في كل شؤوننا، فما يقول الإسلام في هذه المذاهب والدعوات (الأيديولوجية) الحديثة، التي نشط دعاتها في هذه الآونة، والتي تحمل طابع التجديد والتحرير والبعث والتقدم والثورية والانقلابية؟ هل يتسع صدر الإسلام لهذه الأيديولوجيات، ويعقد معها عقد تعايش سلمي؟ أم يرفضها وينكرها ويأبى معايشتها؟ وهل يجوز للجماعة أو للفرد المسلم أن يعتنق أحد هذه المذاهب ويسترشد بها ويجعل نفسه داعية إليها؟ وبخاصة ما يعرف الآن باسم (الاشتراكية الثورية).

قلت: لقد سألت عن أمر خطير يجب على كل مسلم أن يحدد موقفه منه، كما يجب على كل عالم مسلم أن يبين حكم الله ورسوله فيه بلا مواربة ولا مداهنة.

ولن أناقش الآن مضمون هذه المذاهب والدعوات وما تحتويه من أفكار ونظريات وقواعد صحيحة أو باطلة، فإن المناقشة الموضوعية لكل مذهب أو فكرة منها لها مكان آخر. ولكن هنا أناقش الشكل والجوهر العام لهذه

المذاهب جميعاً.

إن هذه المذاهب والأيديولوجيات في حقيقتها أديان جديدة، أديان تنكر مضمون الدين، ولكنها تتخذ شكله. إنها تسخر من كل ما جاء به الدين من الغيبيات، ومن عقلية المتدينين وإيمانهم الدافق الحار، ولكنها في نفس الوقت تأخذ كل خصائص الدين!

ما هي خصائص الدين؟

إنها الثورة على الأفكار والقيم الجاهلية القديمة والتخلص منها.

إنها الإيمان بمجموعة من الأفكار لا تقبل المناقشة في صحتها، وبمجموعة من القيم لا تقبل الشك في عدالتها. إنها إخلاص للفكرة لا يقبل الشركة، وولاء لا يقبل المزاحمة، واعتزاز لا يقبل المهادنة أو المداهنة، وتضحية لاتقبل الإحجام، وثبات لايقبل الردة.

هذه أهم خصائص الأديان (التقليدية)، وهذا ما تريده من المؤمنين بها، وهذا أيضاً ما تريده الأيديولوجيات العلمانية الانقلابية الحديثة من أنصارها.

إنها جميعاً تعتبر الدين هو الجاهلية التي يجب التحرر من ربقتها، وأفكاره وقيمه ومثله، إنما هي أمور (رجعية) بالية يجب التمرد عليها، ووزنها بميزان الفكرة الجديدة، فما كانه منسجماً معها؛ قبل بقائه تابعاً للأيديولوجية وخادماً لمقاصدها، وما لم يكن كذلك؛ (شطب) عليه بالقلم الأحمر ..

إن هذه الأيديولوجيات لا ترضى لنفسها أن تأخذ جانباً من الحياة أو المجتمع لتصلحه أو تطوره .. كلا، إنها تتسم بطابع الشمول والإطلاق

والكلية، كالدين تماماً؛ ولذا فهي تريد تغييراً جذرياً، وتحولاً ثورياً، يحطم القديم، ويعدل المفاهيم، ويضع للناس قيماً جديدة، وأخلاقاً جديدة، ومفاهيم جديدة، وأنظمة جديدة.

يقول أحد الدارسين لهذه الأيديولوجيات والموالين لها في صراحة، وبعد شرح وتفصيل: «هكذا تجد الأيديولوجيات الانقلابية نفسها مضطرة ـ إن أرادت تحقيق حركة انقلابية متكاملة أن تعمل على تحويل المجتمع إلى جمهور، أي إلى أفراد خسروا جذورهم وتقاليدهم، وأن تنقض ـ مبدئياً وأساسياً ـ التراكيب الاجتماعية السائدة، وأن تساعد كل حركة أو موقف هدام يساهم في تمزيق عراها، وأن تدعم كل تغيير يؤدي إلى اقتلاع جذور التقاليد والنظم والقيم التقليدية، وعندما تصل إلى السلطة وتتسلم زمام الدولة، تعمل بجميع الوسائل السياسية، وجميع ما يتوفر لها من وسائل تكنولوجية وعلمية، على تحقيق تهديم التراكيب والنظم والعلاقات الاجتماعية تهديماً عاماً؛ لأن الفرد يستطيع أن يتحول إلى الأيديولوجية الجديدة، فيصبح انقلابياً إن هو خسر روابطه بها (أي القيم والنظم القديمة) من كتاب «الأيديولوجية الانقلابية» تأليف د. نديم البيطار.

ولقد سمى بعض الباحثين هذه الأيديولوجيات (الأديان العلمانية) أو (الأديان الملحدة) أو (العلمانية الدينية)، وألف فيها جوليان هكسلي كتابه (دين بغير وحي)!

ولقد كان دعاة هذه المذاهب والأفكار صرحاء حين أطلقوا عليها اسم «العقيدة»؛ ولهذا يقولون: (العقيدة الاشتراكية) (العقيدة الشيوعية، العقيدة

النازية، العقيدة البعثية، العقيدة القومية)، و (العقيدة) تعبير ملطف لمفهوم (الدين) ولو أردنا صراحة أكثر لقلنا: الدين الاشتراكي، والدين البعثي، والدين القومي ... إلخ.

ومن الكتَّاب من يحاول تفسير هذه العقائد تفسيراً يحببها إلى جمهرة الشعوب المتدينة؛ فالاشتراكية ـ مثلاً عنده ـ مجرد مذهب اقتصادي ينسبه إلى فلسفة إنسانية، توجب تدخل الدولة لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية على نحو معين، ولكن كتَّاب الاشتراكية الصرحاء لم يرضوا بهذا التوفيق بل التلفيق، وصوروها على أنها عقيدة شاملة تنتظم كل شؤون الإنسان والحياة، فطرية وعملية.

يقول الدكتور منيف الرزاز ـ الذي انتخب أميناً لحزب البعث الاشتراكي العربي لعدة سنوات ـ في كتابه (دراسات في الاشتراكية) الذي صدر سنة ١٩٦٠م: (إن فهم الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي فحسب، هو فهم خاطئ، فالاشتراكية تقدم حلولاً اقتصادية لمسائل كثيرة، ولكن هذه الحلول جميعاً ليست إلا ناحية واحدة من نواحي الاشتراكية، وفهمها على أساس هذه الناحية الواحدة فهم خاطئ لا ينفذ إلى الأعماق، ولا يتعرف إلى الأسس التي تقوم عليها الاشتراكية، ولا يتطلع إلى الآمال البعيدة التي تذهب إليها الاشتراكية.

فالاشتراكية مذهب للحياة، لا مذهب للاقتصاد، مذهب يمتد فيما يمتد إلى الاقتصاد والسياسة، والتربية والتعليم، والاجتماع والصحة، والأخلاق والأدب، والعلم والتاريخ، وإلى كل أوجه الحياة كبيرها وصغيرها، وأن تكون اشتراكياً يعني أن يكون لك فهم اشتراكي لكل هذا الذي ذكرت، وأن يكون

لك كفاح اشتراكي يضم كل هذا الذي ذكرت).

ثم يؤكد الكاتب أن هذه النظرة الشاملة ليست مقصورة على الاشتراكية، إنما هي الأساس في المذاهب الاجتماعية الأخرى.

ولقد برر الكاتب شمول المذاهب الاجتماعية واتساع نطاقها بحيث تتسع إلى كافة المجالات وأن تضع الحلول لكافة المشكلات بأن: (... سبب هذه النظرة الشاملة ـ أن الحياة نفسها شيء واحد ـ تيار واحد لا يعرف هذا التقسيم الذي يخترعه عقلنا؛ لكي يسهل على نفسه إدراك حقائق الحياة، ثم ينسى أنه هو نفسه الذي قام بهذا التقسيم، ويظن أن الحياة كانت مقسمة هكذا منذ الأزل .. فالحياة لا تعرف شيئاً اسمه الاقتصاد منفصلاً عن شيء اسمه الاجتماع، وشيء آخر اسمه السياسة. الحياة شيء متكامل متصل، ولكن عقلنا العاجز المغرم بالتحليل والدرس، لن يتمكن من القيام بهذا التحليل والدرس، إذا واجه الحياة ككل قائم بذاته، فهو مضطراً إلىأن يقسم الحياة إلى أوجه، وإلى ألوان، وإلى أنواع من العلاقات، فيسمي بعضها اقتصاداً، ويسمي بعضها الآخر سياسة، وبعضها اجتماعاً، وأخلاقاً، ودينا، وتاريخاً، وأدباً، وعلماً، إلى آخر هذه السلسلة إن كان لها آخر ... الحياة ... كالنهر شيء واحد متصل مستمر .. وكذلك حياة أي مجتمع، كبيراً أو صغيراً، أمة أو أسرة، حكومة أو حزباً، فموقف أي مجتمع إزاء الحريات السياسية يقرر موقفه من الاقتصاد، وموقفه من النظم الاقتصادية، يقرر موقفه من الحريات السياسية، وكذلك من الاستعمار ومن الأخلاق ومن التعليم ومن الأدب ومن التاريخ إلى آخر هذه السلسلة التي لا نتتهي).

ويخلص الكاتب من ذلك إلى تأكيد الصفة الشاملة للاشتراكية فيقول:

(... بهذا المعنى تصبح كلمة الاشتراكية إذن كلمة لا تقتصر على التغيير من حالة اقتصادية معينة فحسب، بل هي تعبير عن نوع من الحياة بأكملها بجميع وجوهها، والاشتراكية بهذا المعنى ليست وضعاً اقتصادياً معيناً، وليست سعياً في سبيل وضع اقتصادي معين فحسب، بل هي فهم اشتراكي لكل نواحي الحياة، وحين أقول بأنني اشتراكي، فقد عينت موقفي لا من العلاقات الاقتصادية التي أعيش من خلالها فحسب، بل لقد عينت موقفي من جميع نواحي الحياة التي تلامسني وألامسها).

وعلى هذا المنهج نفسه مشى كتاب (الدعوة الاشتراكية) في مصر في العهد الناصري، فأعلنوها عقيدة شاملة تنتظم حياة الإنسان كلها، توجه فكرته وسلوكه وفلسفته للوجود والتاريخ.

فهذا كمال الدين رفعت (أمين الدعوة والفكر) في الاتحاد الاشتراكي العربي، والذي اعتبرت كلماته في هذا الوقت بمثابة (الفتوى الرسمية) من جهة الاختصاص المسؤولة.

يقول في مقال نشرته جريدة الأخبار في ١٩٦٢/٣/١٨م: (الاشتراكية ليست نظاماً محدداً، بمعنى أنها ليست مثلاً مجرد نظام اقتصادي أو نظام اجتماعي أو نظام سياسي، ولكنها في تقديري عبارة عن فلسفة تجمع نواحي الحياة كلها، ومن الخطأ أن نأخذ الاشتراكية على أنها نظام اقتصادي أو نظام سياسي أو نظام اجتماعي، فمجموع هذه المعاني فيما بينها هي التي تكمل بعضها وتقيم الفكر الاشتراكي أو النظام الاشتراكي).

ويؤكد الدكتور جمال سعيد هذا المعنى في كتابه (الاشتراكية العربية ومكانها في النظم الاشتراكية) (إنها ـ أي الاشتراكية العربية ـ تتميز لا

كحركة اقتصادية فحسب، ولكنها تتميز كنظام ومذهب إنساني وأسلوب للحياة يهدف لإقامة مجتمع جديد، إنها ليست مجرد نقل ملكية وسائل الإنتاج من الأفراد إلى الدولة أو المجتمع، وليست مجرد سيطرة على الاقتصاد القومي وتوجيهه لصالح المجموع، وليست مجرد إصلاح اجتماعي أو اقتصادي، ولكنها تتعدى كل هذا إلى نطاق الحلول النظرية والعملية لمشاكل الفرد والمجتمع، إنها عملية بناء لمجتمع تؤمن فيه كل الضمانات، مجتمع الكفاية والعدل، مجتمع العمل وتكافؤ الفرص، مجتمع الإنتاج والخدمات).

وفسر بعض الكتاب العرب ما الذي يعنيه أن تكون (الاشتراكية مذهباً للحياة) (وأسلوباً لها) أو (فلسفة تجمع نواحي الحياة كلها) فقالوا: (إن معنى هذا أن تتناول الاشتراكية حياة الإنسان بكاملها؛ لأنها فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود).

ومما قيل في هذا الشأن: (إن الاشتراكية العربية نظرية ثورية كاملة، وأنها كذلك لا تحدد علاقة الإنسان بالمجتمع فقط، ولكنها تتناول حياته كاملة، وهي تكون فلسفة كاملة إزاء مشكلة الكون ومشكلة الوجود، والإنسان لايعيش بالخبز وحده، ولا يكتفي بحل مشكلة حياته مع الناس، بل هو يتطلع لحل مشكلة وجوده ومعرفة مصيره .. والنظرية الاشتراكية لا تقدم حلاً لمشكلة الخبز أو مشكلة الحرية، ولكن مشكلة الوجود عامة)[1].

قال صاحبي: ولكن ألسنا نسمع هؤلاء كثيراً ما يصرحون أنهم يحترمون الدين أو على الأقل، لا يقفون ضده، فكيف نفسر هذا وهم يعتنقون فكرة أو

(١) نقل ذلك الأستاذ محمد عصفور المحامي في بحث له آخذاً عن الصحف والمجلات المصرية.

عقيدة أخرى شاملة للحياة كلها شمول الدين؟

قلت: نعم قد يعلن بعض أصحاب هذه العقائد والأيديولوجيات أنهم لا يعادون الدين ولا يكفرون به، ولكن ما هو الدين الذي لا يعادونه؟ إنه ليس وحياً أنزله الله ليحكم عباده، ويقولون عنده: سمعنا وأطعنا؛ لأنهم لا يقولون ذلك أبداً، إنما هو شيء يسمى (التراث الروحي) أو (التقاليد) أو (المثل العليا) للأمة، إلى غير ذلك من العبارات المائعة المطاطة التي لا تغني من الحق شيئاً. إن الدين الذي يعترف به هؤلاء هو الدين الذي ينحني لهم، ويمشي في ركابهم، ويسبح دعاته بحمدهم، ويخدم عقائدهم وأفكارهم؛ ولهذا يفتضح نفاق هؤلاء ويبرز عداؤهم للدين سافراً، حين يتعارض الدين مع شيء من مبادئهم وخلقهم.

إنهم حينئذ يدوسون الدين ويعلنون الحرب عليه وعلى دعاته، تارة بحملات التشهير والتشنيع والتضليل، وطوراً بحملات التقتيل والتعذيب والتشريد، فهم يريدون ديناً (مستأنساً) ديناً يقوم بمهمة الخادم المطيع، لا الآمر المطاع، أما الدين الحق، فإنهم بعيدون عنه بُعد ما بين السماء والأرض.

إن فكرة هؤلاء عن الوجود غير فكرة الدين، ونظرتهم إلى الحياة غير نظرة الدين، وإنسانهم ليس هو إنسان الدين، ومثلهم الأعلى ليس مثل الدين. إن معبودهم في الحقيقة هو المادة، وجنتهم في الواقع هي الرفاهية، وأخلاقهم هي النفعية.

إن ما يغالي به الدين من تقوى الله وخشيته والتوكل عليه والخشوع له والإنابة إليه، والتذلل بين يديه، والرجاء في جنته، والخوف من عذابه، تعد كلها في نظر هؤلاء (التحررين) (الثوريين) أخلاقاً (رجعية) لايسمح لها بالبقاء.

إن هذه الأيديولوجيات لا يمكن أن ترضى في مجتمعها عن هؤلاء الناس الذين خلع عليهم القرآن وصف المتقين ﴿**الذينَ يقولونَ ربنا إننا آمنَّا فاغفرْ لنا ذنوبَنا وقِنا عذابَ النارِ ۞ الصابرينَ والصادقينَ والقانتينَ والمنفقينَ والمستغفرينَ بالأسحارِ**﴾[آل عمران: ١٦-١٧]، ﴿**والذينَ يبيتونَ لربِّهم سُجَّداً وقِياماً ۞ والذين يقولونَ ربَّنا اصرفْ عنا عذابَ جهنَّم إن عذابَها كانَ غراماً ۞ إنها ساءتْ مُستقرَّاً ومُقاماً**﴾[الفرقان: ٦٤-٦٦]. فلا يغرنك ما تسمع أو تقرأ لهؤلاء عن إيمانهم بالدين أو عدم عداوتهم له، فإنما يقولون ذلك ـ عند الحاجة ـ مداهنة للجماهير المتدينة، وكسباً لقلوبها وانتظاراً للفرصة التي تمكنهم من عنق الدين، فهو من باب (تمسكن حتى تتمكن).

هذا شأن أية أيديولوجية ثورية مع أي دين، ولعل من المفيد هنا أن أضرب لك مثلاً بما حدث في ألمانيا وإيطاليا بين النازية والفاشية وبين الدين المسيحي؛ لتعرف منه ما يجري وما يمكن أن يجري هنا في بلادنا بين الإسلام والدعوات الثورية الجديدة، وأنا في هذا ناقل لا مستنتج.

لقد أرادت النازية والفاشية جعل الدين خادماً يأتمر بأمر الأيديولوجيات الانقلابية؛ ففي كل منهما حملت الأيديولوجية (مطلباً) جديداً، يسود كل شيء ويجعل كل شيء يقف موقفاً ثانوياً بالنسبة إليه، كما يتضح ذلك كل الوضوح في كتابات الحركتين، وفي النازية على الأخص.

ولقد وقعت معاهدة بين الكنيسة وبين الحكومة النازية عام ١٩٣٣م، بعد أن كان من المستحيل الارتباط بها؛ لأن البلاد ـ أي بلاد ـ لا تتسع لإيمانين مطلقين .. لهذا لم يكن من السهل على تلك المعاهدة أن تسدل ستاراً على

الحرب الفاشية بين الجهتين، بالرغم من المحاولات العديدة التي كان يبذلها الطرفان لإبقائها خفية.

كان الجيل الألماني ينشأ ـ نتيجة للدعاية النازية ـ على الاعتقاد بأولوية الأمة، وبأن الدولة هي أهم وأكبر قيمة من أي دين، وأن الولاء للأمة والدولة هو أهم شيء ويتقدم على أي ولاء ديني آخر (تأمل).

كان هتلر حذراً جداً في مناهضته ومقاومته للدين بشكل علني (تأمل جيداً)، ولكنه أعطى مفكري الحزب الحرية في التعبير عن مناهضتهم ومقاومتهم.

رسم «روزنبرغ» فيلسوف النازية صورة واضحة عن موقف النظام الجديد من الدين بمثل قوله: عندما يضع الاشتراكي القومي قميصه الحزبي، ويصبح جندياً من جنود هتلر؛ يمسي دينه إيمانه بزعيمه.

أما «كنوث» فقد كتب: إن المسيحية من البقايا البائدة لثقافة منحلة عفى عليها الزمان.

لقد كانت عداوة النازية والفاشية للدين غامضة أول الأمر، وذلك لمحاربتهما الشيوعية الصريحة الإلحاد، وهذا ما خدع الكثيرين، وجعل عدداً كبيراً من قادة الكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية يقف إلى جانبهما؛ لأنهم رأوا فيهما معنى جديداً للدين، ولكن كان الأمر على عكس ذلك تماماً، فقد اتبعتا في بادئ الأمر سياسة بعيدة كل البعد عن إلحادية الحركة الشيوعية، وما لبث أن تبين للمراقبين أنهما ما قبلتا وجود الدين وبقاء الكنائس إلا كأداة في خدمة مقاصدهما العقائدية الجديدة؛ لهذا نرى الصراع يذر قرنه رأساً بينهما وبين الدين عندما يحاول الأخير التمسك بأي شيء يتنافى مع المذهب الجديد.

قد تفرض الاعتبارات الاستراتيجية السياسية على الحركات الانقلابية ـ

كما فرضت على الفاشية والنازية وإلى حد ما على الشيوعية ـ أن تحقق بعض التسويات مع الأديان السائدة، ولكن هذا التكتيك لايمكن له أن ينسجم طويلاً مع قاعدتها الأساسية المنافية للدين؛ فشمول هذه الانقلابات لابد له من الخصام مع الدين، الذي يزعم لنفسه الشمول ذاته؛ فليس هناك من تسوية ممكنة بين الطرفين، وكل تسوية تحدث لا تخرج عن كونها هدنة مؤقتة في طريق المعركة النهائية، التي يجب أن تنتهي بالنصر التام لأحدهما، فالأيديولوجية الانقلابية تمثل ديناً جديداً ينافس الأديان السابقة في تملك نفوس الناس؛ ولهذا فإن حياتها ذاتها ترتبط بالنصر النهائي الذي تستطيع أن تسجله ضد الأديان(١) .

هل يمكن بعد هذا كله، لدين محترم أن يقبل معايشة هذه المذاهب، بل الأديان الجديدة؟ وكيف وهي نفسها لا تقبل معايشته، ولا تسمح بوجوده إلا خادماً أو تابعاً أو أداة؟...

إن السؤال الأصلي يسقط من نفسه إذا حورناه بهذه الصورة: هل يجوز للفرد المسلم أو المجتمع المسلم أن يعتنق ديناً جديداً كالاشتراكية أو القومية العلمانية؟

إن الجواب لاشك واضح ومعروف.

وصدق الله العظيم: ﴿**ما جعلَ اللهُ لرجلٍ مِن قلبينِ في جوفِهِ**﴾[الأحزاب:٤]، ﴿**ومن يبتغِ غيرَ الإسلامِ ديناً فلن يقبلَ منه وهو في الآخرةِ مِنِ الخاسِرِينَ**﴾[ال عمران: ٨٥].

---

(١) من كتاب: الأيديولوجية الانقلابية: تأليف د. نديم البيطار من ص ٧٤٢ ـ ٧٤٦ بتصرف.

obeikandl.com

الدعوة القومية في ميزان الإسلام

قال صاحبي: بعد أن اتضح لنا الموقف من المذاهب والفلسفات الجديدة التي غدت (أدياناً بغير وحي) أريد أن أعرف رأيك في هذه القومية؟

قلت: أي قومية تعني؟ القومية التركية الطورانية، أم القومية السورية الفينيقية، أم القومية المصرية الفرعونية، أم القومية العراقية الآشورية، أم القومية البربرية المغربية، أم القومية الكردية الـ...

وهنا قاطعني صاحبي قائلاً: أعوذ بالله من تلك القوميات الضيقة التي تمزق شمل الأمة العربية، وتفتت كيانها، وتخلق الحواجز بينها، أنا لا أعني إلا القومية العربية.

قلت: تعني أن القوميات منها ما هو حلال طيب، ومنها ما هو حرام خبيث، فإذا كانت القومية سورية كالتي دعا إليها أنطون سعادة في سوريا ولبنان، أو فرعونية كالتي دعا إليها أمثاله في مصر، أو كردية كالتي يدعو إليها آخرون في العراق، أو بربرية كالتي اختلقها المستعمرون الفرنسيون في المغرب، فكل هذه قوميات حرام، أما إذا كانت القومية عربية كالتي يدعو إليها الخواجات م. ع.و.ج.ح.و.ق.ز. وغيرهم فهذه قومية حلال زلال، لا لغو فيها ولا تأثيم!

لابد أن نتفق أولاً على مبدأ القومية وشرعيته: هل هو حق أم باطل؟ رشد أم غي؟ هل يقبل كله؟ أم يرفض كله؟ أم يؤخذ منه ويترك؟

قال صاحبي: هذا صحيح.

قلت: وقبل ذلك، يلزمنا أن نتفق على مفهوم كلمة (القومية) ومدلولها، والمراد بها، أما إصدار حكم على شيء قبل تحديد مفهومه، والمراد به، تحديداً دقيقاً، فهو تسرع وتهور لا يليق بالعقلاء، وقديماً قال أهل المنطق: الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

قال: وهذا صحيح أيضاً.

قلت: (القومية) لفظة منسوبة إلى (القوم) وقوم الرجل في الأصل هم عشيرته الذين تربطهم به راطبة الدم والنسب، كما هو واضح من استعمال القرآن لكلمة (قوم) في سياق إرسال الرسل إلى قومهم، ولكن الأنساب والسلالات الآن توزعت في الأرض وتفرقت، فلم تكد تبقى أمة صافية العنصر، خالصة النسب، وهذا ما جعل دعاة القومية يضطربون في وضع تعريف معين لها، وفي بيان المقومات الأساسية التي بها تتكون الأمة: هل هي الأرض؟ أم السلالة؟ أم الدين؟ أم اللغة؟ أم التاريخ؟ أم المصلحة؟ أم مجرد الإرادة، أي إرادة قوم أن يعيشوا معاً؟ على أن دعاة القومية في الوطن العربي، قد أغفلوا الدين باعتباره أساساً للتجمع القومي، وإنما هم بين معتمد على الرابطة الطينية الأرضية كدعاة القومية السورية، ومعتمد على الرابطة العنصرية كدعاة القومية الكردية والبربرية، ومعتمد على الرابطة اللغوية والتاريخية كدعاة القومية العربية.

ومهما يكن الأساس الذي تبنى عليه القومية، فماذا تعني الدعوة إليها؟ (إن كانت تعني أن يحب الرجل قومه، ويسعى إلى خيرهم ورقيهم ونهضتهم ويبذل كل ما في وسعه لمجدهم وعزتهم، فهذا أمر مشروع يباركه الدين

ويؤيده ويدعو إليه)، وإن كانت تعني أن يتحد القوم ويقفوا صفاً واحداً في قضاياهم، ويتعاونوا على البر والتقوى، فنعمت القومية هي، وإن كانت تعني التكتل ضد هجمات الغاصبين، وعدوان المعتدين، فمرحى ثم مرحى .. (وإن كانت تعني تحرير الوطن من احتلال أعدائه، والنهوض به في جميع مرافقه، فمرحباً بها وأهلاً، وإن كانت تعني ...).

قال صاحبي: وهل تعني القومية أكثر من هذا؟!

قلت: نعم، لو كان دعاة القومية في أوطاننا يقفون عند هذا الحد؛ لكان الخلاف بيننا وبين القوميين لفظياً، وكنا معهم بحكم ديننا الذي يجعل هذه الأمور فرائض مقدسة ـ تحرير الوطن والنهوض به، ووحدة الأمة، والوقوف في وجه الأعداء ... إلخ.. والذي يجعل لعشيرة المسلم وجيرانه حقاً أكثر من غيرهم على الناس بحكم القرابة الواصلة والجوار الجامع، ولكن الحقيقة أن بيننا ـ معشر الدعاة إلى الإسلام ـ وبين الدعاة إلى القومية ـ كما يعرضها دعاتها اليوم ـ هوة عميقة أو فجوة واسعة، والخلاف بيننا وبينهم خلاف حقيقي جذري، لا يمكن معه لقاء فكري بين الطرفين.

قال صاحبي: وما هي الأمور التي تخالفون أو يخالفكم فيها دعاة القومية، وأعني بالذات القومية العربية؟

قلت: نحن نعارض دعاة القومية في عدة أمور جوهرية، يتمسكون هم بها، وينكرها الإسلام، وتمسكهم بها ـ فيما يبدو ـ أمر حتمي؛ لأنها مقتضى فكرتهم، ولازم من لوازم دعوتهم.

أولاً: أنهم يعتبرون القومية (عقيدة) يجب الإيمان بها، والولاء لها،

والدعوة إليها والتعصب لها، ومعاداة من لا يقبلها ولا يعتنقها.. عقيدة يجب أن يقدم الولاء لها على أي ولاء آخر، ولو كان الولاء لله ولرسوله ولكتابه... يجب أن يغرس حبها في أعماق القلوب، وأن يبدأ ذلك منذ نعومة الأظفار، وأن تفرغ فيها كل العواطف والمشاعر.

يجب أن ينبثق من هذه العقيدة القومية نظام الحكم، وسياسة الدولة، ومناهج التربية والتعليم، ووسائل التثقيف والإعلام، يجب أن يكون اتجاهها جميعاً قومياً صرفاً، وأن تكون صبغتها الوحيدة الصبغة القومية، وأن تزال أو تطرد كل صبغة أخرى.

إن ما قلناه من قبل عن الاشتراكية النازية والفاشية وما شاكلها نقوله هنا، أعني أنها عقائد وأديان جديدة، تعمل جاهدة على أن تحتل قلوب الناس وعقولهم، وتطرد منها الدين القديم، وهذا الذي نقوله واضح في كتابات القوميين اليوم كل الوضوح.

فهذا كاتب قومي يقول: الوجدان القومي العربي بدأ يستيقظ في نفوس أفراد من العرب في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وأول ما بدأ ذلك في ديار الشام مهدوا بالقضاء على الحكم الأجنبي (التركي) يومئذ وعلى الإقليمية، وقد تزعم هذه الحركة وقادها بعض الفضلاء المسيحيين الذين لم تكن تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين المتينة ورابطة الإخاء الإسلامي، وكانوا مثقفين بالثقافة الغربية التي تقوم على تمجيد القومية، وكان من زعمائها الأولين الدكتور فارس نمر، والشيخ إبراهيم اليازجي، والأستاذ نجيب العازوري اللبناني.

القضية العربية لن تكون أبداً عند العربي المؤمن، الحر العاقل، الشريف الصالح، الخير الأبي، المترفع، إلا قضية إيمان بالوطن للوطن، كقضية الإيمان با لله لله لا غير.

ويشرح الكاتب (العروبة) في بيان واضح ولفظ صريح فيقول: العروبة نفسها (دين) عندنا نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين؛ لأنها وجدت قبل الإسلام، وقبل المسيحية، في هذه الحياة الدنيا مع دعوتها ــ أي العروبة ــ إلى أسمى ما في الأديان السماوية من أخلاق ومعاملات وفضائل وحسنات.

ومما يدل على أن القومية العربية قد أصبحت في نظر كثير من دعاتها والمؤمنين بها ديانة إزاء ديانة، وعقيدة مقابل عقيدة؛ مقال لكاتب قومي آخر، جاء في مجلة (العربي) عدد يناير ١٩٥٩م:

ومن معانيه الأولى وحدة لكل من تسمى به من أهل هذه الأرض، والوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة ا لله من قلب قوم مؤمنين.

ويقول الكاتب الأديب المصري المشهور الأستاذ محمود تيمور منساقاً في هذا التيار: لئن كان لكل عصر نبوته المقدسة ... إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر في مجتمعنا العربي، ورسالة هذه النبوة هي تجميع القوة، وتكتيل الجبهة، والانطلاقة بالطاقة البشرية في كيان المجتمع العربي نحو كسب الحياة.

وإن كتاب العرب في أعناقهم أمانة، هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة، يزكونها بأقلامهم، وينفثون فيها من أرواحهم، ويعملون على أن

تكتمل لها أسباب النماء والازدهار.

ثانياً: إن النتيجة الحتمية لهذه العقيدة القومية أن نجد القوميين عامة يجمعون على إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية؛ ولهذا ترى دعاة القومية العربية يفضلون العربي غير المسلم على المسلم غير العربي، بل إنهم ليجحدون رابطة الإيمان، ولا يعترفون بأثرها في العلاقات والسلوك؛ وهذا يخالف ما جاء به القرآن الكريم ﴿**إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ**﴾[الحجرات: ١٠] ، وما جاءت به السنة: «المسلم أخو المسلم»(١). القرآن يأمرنا أن ندوس كل رابطة إذا تعارضت مع عقيدة الإسلام، ورابطة الإسلام، فيقول تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتخِذوا آباءكم وإخوانكم أولياءَ إن استحبُّوا الكفرَ على الإيمانِ ومن يتولَّهم منكم فأولئكَ همُ الظالمونَ**﴾[التوبة: ٢٣]، ويقول سبحانه: ﴿**لاتجد قوماً يؤمنونَ باللهِ واليومِ الأخرِ يوادُّونَ مَن حادَّ اللهَ ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرَتَهم**﴾[المجادلة: ٢٢].

أرأيت أعز، وأوثق من علاقة الأب ببنيه، أو الابن بأبيه؟ إنها علاقة يباركها الدين، ويحرص على توثيق عراها، ويقدر العواطف الكريمة التي تنبع منها، ولكنه لا يسمح لها أبداً أن تعلو على رابطة الإيمان، فضلاً عن أن تعارضها، وتقف في سبيلها فهذا نوح ينجيه الله مع المؤمنين من الطوفان، فيأبى أحد أبنائه أن يؤمن به، ويركب معه سفينة النجاة، وذهب يعتصم بالجبل من الغرق فأدركه الغرق، إذ لا عاصم يومها من أمر الله إلا من رحم،

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمر في كتاب المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠/ ٥٨).

وأدركت عاطفة الأبوة نوحاً عليه السلام، فأراد أن يشفع له عند الله ﴿**ونادى نوحٌ ربَّهُ فقالَ ربِّ إنَّ ابني مِن أهلي وإنّ وعدَكَ الحقُّ وأنت أحكمُ الحاكمينَ ۞ قالَ يا نوحُ إنه ليس من أهلِك إنه عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألْنِ ما ليسَ لك به علمٌ إني أعظكَ أن تكونَ مِن الجاهلين ۞ قال ربِّ إني أعوذُ بك أنْ أسألَك ما ليسَ لي به علمٌ وإلا تغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرينَ**﴾[هود: ٤٥-٤٧].

كان الرد الإلهي على نوح رداً حاسماً صريحاً ﴿**إنه ليس من أهلِك إنه عملٌ غيرُ صالحٍ**﴾[هود: ٤٦] فليس أهل نوح من خرج من صلبه، وإنما أهله وشيعته هم المؤمنون الصالحون، فلا عجب أن يقول الله تعالى عن علاقة إبراهيم خليل الله به بعد قرون بينهما لايعلمها إلا الله ﴿**وإن من شيعته** (أي نوح) **لإبراهيمَ ۞ إذ جاءَ ربَّه بقلبٍ سليمٍ**﴾[الصافات: ٨٣-٨٤].

وإبراهيم يدعو أباه إلى التوحيد بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يدع عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئاً، ويقول في ختام دعوته في حب وإشفاق: ﴿**يا أبتِ إني أخافُ أن يمسَّك عذابٌ مِن الرحمنِ فتكونَ للشيطانِ وليّاً**﴾[مريم : ٤٥]، فماذا قال الأب الذي شب وشاب على الوثنية؟ ﴿**قال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيمُ لئنْ لم تنتهِ لأرجمنَّك واهجرْني مليّاً ۞ قال سلامٌ عليك سأستغفرُ لك ربِّي إنه كان بي حَفِيًّا**﴾[مريم: ٤٦-٤٧]، وأنجز إبراهيم وعده واستغفر لأبيه ربه ﴿**واغفرْ لأبي إنه كانَ مِن الضالينَ**﴾[الشعراء: ٨٦].

ولكنه حين تبين لإبراهيم عناد أبيه وإصراره على كفره، أعلن مخاصمته

في الله، وجاهره وقومه عامة بالبغض في الله، وبرئ إلى الله من شركه وشرك وقومه، مما سجله له كتاب الخلود في آيات بينات ﴿**وإذا قال إبراهيمُ لأبيه وقومِه إنني براء مما تعبدون ۞ إلا الذي فطرني فإنه سيهدَين**﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، ﴿**وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدَها إياهُ فلما تبيَّنَ له أنه عدوٌّ للهِ تبرَّأ منه إن إبراهيمَ لأوَّاهٌ حليمٌ**﴾[التوبة: ١١٤].

وجعل موقفه من أبيه وقومه أسوة للأجيال المؤمنة إلى قيام الساعة حيث قال: ﴿**قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والذينَ معَه إذْ قالوا لقومِهم إنّا بُرَآءُ منكم ومما تعبدونَ مِن دونِ اللهِ كفرَنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً حتى تؤمنوا باللهِ وحدَه**﴾[الممتحنة: ٤].

وإذا كان إبراهيم قد خسر علاقة أب في ذات الله، فإن الله عوضه ألوف الملايين يعترفون له بالأبوة الروحية، ويصلون كل يوم مرات كثيرة على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، فالذي قطع صلة إبراهيم بأبيه المشرك، وصله بالمؤمنين وجعلهم له أبناء بعد ألوف السنين: ﴿**إن أولى الناسِ بإبراهيمَ للَّذينِ اتبعوهُ وهذا النبيُّ والذينَ آمنوا واللهُ وليُّ المؤمنينَ**﴾[آل عمران: ٦٨]، ﴿**مِلَّةَ أَبيكُم إبراهيمَ هو سَمَّاكُم المسلمينَ**﴾[الحج: ٧٨].

وإذا كان هذا موقف القرآن من رابطة الأبوة والنبوة ـ إذا تعارضت مع الإيمان ـ فما بالك بروابط أبعد تقوم على غير أساس الإيمان والإسلام؟

إن القرآن لا يعترف إلا بالإيمان رابطة، ولا يقر إلا الإخاء الإسلامي جامعاً بين المسلمين ﴿**إنما المؤمنون إخوةٌ**﴾[الحجرات: ١٠]، أما القوميون فلا

يعترفون بالدين جامعاً ولا مفرقاً بين الناس.

إن مثل القوميين الأعلى يتجلى في قول شاعرهم:

بلادك قَدِّمْها على كلِّ مِلَّة ومن أجلها أَفْطِر ومن أجلها صُمِ
هوني ديناً يجعل العرب وحدة وسيروا بجثماني على دين «بَرْهِمِ»
سلامٌ على كُفْرٍ يوحِّدُ بيننا وأهلاً وسهلاً بعدَه بجهنَّمِ

أما المسلمون بل المؤمنون جميعاً، فيرون هذا الكلام كفراً صريحاً، ينافي أبسط قواعد الإيمان.

إنهم يريدون منا أن نسوي بين أبي لهب وأبي بكر ، وبين أبي جهل وعمر بن الخطاب؛ لأنهم في الميزان القومي سواء، ولكن القرآن يقول:

﴿لا يستوي أصحابُ النارِ وأصحابُ الجنةِ﴾[الحشر: ٢٠]، **﴿أَفَمَنْ كانَ مؤمناً كَمَن كانَ فاسقاً لايستوونَ﴾**[السجدة: ١٨].

إنهم ينكرون علينا أن نهتم بقضية كقضية مسلمي كشمير، أو قضية مسلمي الحبشة، أو مسلمي الاتحاد السوفييتي (٦٠مليوناً) ولا حرج عندهم أن يناصروا الوثنيين الهنود ضد المسلمين، ولا جناح عليهم أن يؤيدوا النصارى اليونانيين في قبرص ضد المسلمين الأتراك، ولا بأس عليهم أن يقفوا مع الشيوعيين الروس، أو الصينيين ضد الأقليات الإسلامية التي تبلغ عشرات الملايين[1] .

ثالثاً: نعيب على القوميين عزلهم الدين عن المجتمع والدولة، فالقوميون عامة ينادون بدولة علمانية (لا دينية) ويحصرون الدين في نطاق ضيق، لا

(١) رأيناهم في السنوات الأخيرة يبررون الغزو الروسي لأفغانستان المسلمة، ويقفون في صف الغزاة ضد المجاهدين المسلمين الأبطال، الذين يدافعون عن العقيدة والأرض والعرض!

يتجاوز العلاقة بين الإنسان وربه (هذا إن رضوا بوجود الدين واعترفوا ببقائه)، أما أن يتدخل الدين في توجيه المجتمع وتشريع الدولة، ونظام الحياة، فهذه (رجعية) يحاربها القوميون جميعاً. يقول أحدهم مبيناً مهمة القومية العربية: (وتحارب الجهل والفقر والمرض والظلم، وكل عصبية إلا العصبية القومية، وتفصل الدين عن السياسة، وتحرم على رجال الدين الاشتغال بها، وتعليم العربي أينما كان أن يتعصب بعنف لأمرين: قوميته والحق).

وما دفعهم إلى ذلك إلا أنهم طبقوا على الإسلام في الشرق، ما طبق على المسيحية في الغرب، وهذا خطأ جسيم، فالإسلام غير المسيحية في طبيعته وتاريخه وعلاقته بالمجتمع والحياة، والقرآن غير الأناجيل، والمسجد غير الكنيسة، وعلماء الإسلام غير رجال الكهنوت.

المسيحية ليس فيها تشريع لدولة، ولا تنظيم للحياة، وإنما هي عقيدة وصلاة وسلوك فردي، وإنجيلها مواعظ للترغيب والترهيب فحسب.

ومع هذا لم تتخل الكنيسة عن التدخل في شؤون الحكم والسياسة، ولم تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، كما قال المسيح، بل دست أنفها في كل شيء، وساندت الملوك والأباطرة والنبلاء ضد طبقات الشعب، فلما اندلعت نيران الثورات أكلت الملوك والقسيسين معاً، وكان نداء الثوار (اشنقوا آخر ملك، بأمعاء آخر قسيس).

ولم يقتصر تدخل الكنيسة على شؤون الحكم والسياسة، بل تجاوز ذلك إلى شؤون العلم والفكر، فتبنت الكنيسة كل نظرية قديمة، ووقفت تحارب كل جديد، وتطالب بقتل العلماء والمفكرين وتحريقهم.

كان دين الكنيسة ـ ولا أقول دين المسيح؛ لأن الغربيين لم يعرفوا دين المسيح قط ـ قد جعل من نفسه عدواً للحياة، عدواً للتقدم، عدواً للعلم، عدواً للحرية، عدواً للعدل والمساواة، فكان لابد للناس في الغرب وقد مستهم نفحة من الشرق أيقظتهم من سباتهم، عن طريق الأندلس، وعن طريق الحرب الصليبية، فنهضوا يريدون الحياة والتقدم والعلم، والحرية والإخاء والعدالة والمساواة.. كان لابد لهم أن يصطدموا بأعداء هذه الفضائل كلها، وهم ممثلوا الدين هناك ـ للأسف ـ وكان من الطبيعي أن ينتصر هذا النور الزاحف على ذلك الظلام الراكد، وأن يعلن القوم بعد انتصارهم تنحية الدين عن الحياة العامة، وعزله عن قيادة المجتمع، وتوجيه الدولة.

فهل يجوز أن يحمل هذا التاريخ الأسود الكريه، ليوضع برمته على رؤوسنا ويحمل ديننا تبعة فساد دين آخر في بلاد أخر؟

إن الإسلام دين قام من أول يوم على النظر والتفكر، وتمجيد القلم والكتاب، والتفرقة بين الذين يعلمون والذين لايعلمون، ورفض التقليد والجمود واتباع الظن، والحرص والهوى، ولم يحدث في تاريخه صراع حقيقي بين الدين والعلم، وبين النقل والعقل، وبين الشريعة والحكمة.

ولم يقف هذا الدين ضد الحياة والنور والتقدم يوماً، بل كان هو القلب الذي يمد الحياة بالدم، والشمس التي تمد المجتمع بالنور، والماء الذي يجعل من الناس كل فرد حي.

ولم يقف علماء هذا الدين يوماً ما ـ بصفة جماعية ـ يسندون الظلم الحاكم أو الحكم الظالم، بل كانوا ـ في جملتهم ـ قادة الشعب في معاركه

الكبرى ضد الغزو من الخارج، والظلم من الداخل.

والخلاصة يا صاحبي: أن القومي الأصيل. كماصوره هؤلاء ـ يسقط الدين من حسابه، ويضعه على (الرف) أو في مستودعات المستهلك والتالف الذي لاينتفع به، ولا يلتزم القومي الأصيل نحو الدين وقيمه وعقائده وأحكامه بشيء، فلا حرج عليه قط أن يأخذ من الماديين مذهبهم في تفسير الوجود، ومن أبيقور مذهبه في فلسفة الأخلاق، ومن فرويد مذهبه في تفسير السلوك، ومن ماركس مذهبه في تفسير التاريخ، ومن دوركايم مذهبه في علاقات المجتمع، ومن سارتر مذهبه في الأدب والحياة، ولا يسأل نفسه يوماً: هل تتفق هذه المذاهب والأفكار مع الإسلام أم لا؟ على أنهم لو عرفوا فعلاً أنها تعارض الإسلام ويعارضها، لعضوا عليها بالنواجذ، ونبذوا الإسلام وراءهم ظهرياً.

رابعاً: نعارض القوميين في تفتيتهم للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة كما قال تعالى: ﴿**وإنَّ هذِه أمَّتُكم أمةً واحدةً**﴾[المؤمنون: ٥٢]، ﴿**كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للناسِ**﴾[ال عمران: ١١٠]، ﴿**وكذلك جعلناكُم أمةً وسطاً**﴾[البقرة: ١٤٣] ـ إلى أمم شتى، وقوميات متضاربة، تتنازع على حدود أرضية، وتتفاخر بعصبيات جاهلية، وتعتز بغير الأخوة الدينية، والرابطة الإسلامية التي قرنها الله في كتابه بالإيمان، وجعلها دليله وعنوانه فقال: ﴿**إنما المؤمنونَ إخوةٌ**﴾[الحجرات: ١٠]، وقال: ﴿**يأيها الذينَ آمنوا إن تطيعوا فريقاً مِنَ الذينَ أوتوا الكتابَ يردُّوكم بعدَ إيمانِكم كافرينَ**﴾[ال عمران: ١٠٠] أي بعد أخوتكم ووحدتكم متفرقين متنازعين، فالقرآن يعبر عن الوحدة بالإيمان، وعن التفرق بالكفر، لأنه يؤدي إليه، وفي الحديث الصحيح: «سباب

المسلم فسوق، وقتاله كفر»[1]، «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[2]، ويقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار»، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه» متفق عليه[3].

ومنطق القومية يجيز للمسلمين أن يقاتل بعضهم بعضاً، ويسفك بعضهم دماء بعض، نتيجة لتصارع القوميات المختلفة، كما رأينا ذلك في اقتتال العرب والترك في الحرب العالمية الأولى، بتدبير الإنجليز وتحريكهم، بل تحت قيادتهم، فأعجب. وكما رأينا من قريب، قتال القومية العربية مع القومية الكردية في العراق.

وإذا كنت في مطلع حديثك قد استعذت بالله ــ بوصفك عربياً ــ من القوميات الضعيفة التي تمزق شمل الأمة العربية، وتفتت كيانها، وتخلق الحواجز بينها، فهذا المنطق نفسه، يحتم عليك ــ بوصفك مسلماً ــ أن تستعيذ بالله أيضاً من القوميات الضيقة التي تمزق شمل الأمة الإسلامية، وتفتت كيانها ... إلخ سواء كانت تلك القوميات عربية أو طورانية أو فارسية أو غيرها.

خامساً: إن الفكرة القومية فكرة جاهلية رجعية، تنكر الدين، وينكرها

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن مسعود في كتاب الإيمان (٤٨)، ومسلم في الإيمان (٦٤/١١٦، ١١٧).

(٢) رواه البخاري من حديث جرير بن عبد الله في العلم (١٢١) وفي المغازي (٤٤٠٥)، ومسلم في الإيمان (٦٥/١١٨).

(٣) رواه البخاري من حديث الأحنف بن قيس في كتاب الإيمان (٣١) وفي الديات (٦٨٧٥)، ومسلم في الفتن (٢٨٨٨/١٤).

الدين، كل دين فضلاً عن الإسلام.

أما إنها جاهلية؛ فلأنها تقوم على إحياء العصبية التي كانت من أخص سمات العصر الجاهلي، والتي برئ الإسلام ورسوله منها كل البراءة إذ قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»(١).

ومن إحياء العصبية الجاهلية الاعتزاز بالآباء، والتفاخر بالأجداد، وإن كانوا في نظر الإسلام من أكفر الكفار، وأفجر الفجار، وأولى الناس بالنار، وبئس القرار، كالذين يعتزون بفرعون ـ كرمسيس وغيره ـ أو بأبي جهل ومن شاكله من العرب.

روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله عز وجل، من الجُعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله قد أذهب عنكم سبة الجاهلية ـ أي كبرها ـ وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، وفاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»(٢).

الجعل دويبة أرضية، تدهده الخرء بأنفها .. أي تدحرجه، وهي مثل في الهوان والحقارة، وأهون منه عند الله الذين يفخرون بالكفرة من أجدادهم، وما هم إلا فحم جهنم ووقود النار.

---

(١) رواه أبو داود من حديث جبير بن مطعم في كتاب الأدب (٥١٢١)، والبغوي في شرح السنة (٣٥٤٣).

(٢) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة في كتاب المناقب (٣٩٥٥) وقال: حسن غريب، وأبو داود في كتاب الأدب (٥١١٦).

ولقد حدثني بعض الثقات أن أحد القوميين الغلاة، سمى ابنه (لهباً) ليناديه الناس بكنية (أبي لهب) فيحيي بذلك ذكر زعيم عربي من زعماء الجاهلية ﴿**تبَتْ يدَا أبي لهبٍ وتبَّ**﴾[المسد: ١]!

وقد نسمع غداً من يسمى ابنه (جهلاً) ليكون (أبا جهل) والجنون فنون.

وأما إنها رجعية؛ فلأنها ليست إلا امتداداً للشعور القبلي، وإذعاناً لعصبية العشيرة، والتنادي بنصرتها ظالمة ومظلومة، وهذه رجعة بالإنسان إلى الوراء البعيد، حيث كانت ارتباطات العشيرة وحدها، هي التي توجه الفرد وتسيره، وفقاً لنزعاتها وتقاليدها، ثم انتقل ولاء الإنسان من العشيرة إلى الأمة، ثم نقلته الأديان السماوية إلى أفق أعلى وأرحب هو أفق العالمية الإنسانية.

يقول امري ريفر في كتابه (قضية السلام) تحت عنوان (تشويه الدين): (بلغت عبادة الدولة القومية ذروتها في البلاد الفاشية).

ولكن تشويه الدين وتسخيره للغايات القومية لوحظ في كل أمة.

إن العنصر المقدس والمهذب في المسيحية هو أنها عالمية، وأن مبدأها أن الناس خلقوا متساوين أمام ا لله، وهم يعنون لإله واحد، قانونه واحد، يسري على الناس جميعاً، ولقد كانت هذه فكرة ثورية في التاريخ البشري، ولكن ظهور الدولة القومية منع هذه الفكرة أن يكون لها أثر مهذب.

ففي اللحظة التي بدأت فيها الأمم الحديثة تتبلور، بدأ الشعور القومي في العالم الغربي يتغلب على الشعور المسيحي، وكانت الكنيسة منقسمة، وازدادت انقساماً إلى مذاهب أخرى، يؤيد كل منها المثل الأعلى الناشئ للأمة.

وصار من المعترف به في كل بلد أن السياسة القومية سياسة مسيحية، وتحولت الكنائس المسيحية إلى هيئات قومية، تؤيد الغرائز القبلية للروح القومية.

ففي آلاف من الكنائس يسأل الله القسيسُ الكاثوليك، والوعاظُ البروتستانت، المجد لمواطنيهم، والويل لغيرهم، وإن كان هذا يتناقض مناقضة شديدة مع أسمى المثل العليا الدينية التي أوتيها الإنسان.

إن المبدأ الأخلاقي الكوني لا يكون كونياً ولا أخلاقياً، إذا كان لايصح إلا داخل جماعات منفصلة من الناس.

فـ (لاتقتل) لا يمكن أن يكون معناها أن من الإجرام أن تقتل رجلاً من مواطنيك، ولكن من الفضيلة أن تقتل رجلاً يعد مواطناً في دولة أخرى.

ومثل هذا التطور يلاحظ في جميع أديان التوحيد الثلاثة، فالوحدة التي احتفظ بها القرآن قروناً بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول، قد ذهبت وصار الشعب الإسلامي قوميات شتى.

فدعاة الجامعة التركية يرمون إلى توحيد فروع معينة من الجنس التركي، ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب العربية.

ويقول المسلمون في الهند: (إننا هنود أولاً ومسلمون بعد ذلك)، وقد نسي الجميع الصبغة العالمية التي كانت أساس دين الإسلام العظيم.

والأمر لا يقتصر على المسيحية والإسلام، فإن أقدم الموحدين، وهم اليهود، قد نسوا التعاليم الأساسية، وهي أنه عالمي ...

فهم يبغون أن يعبدوا بعواطف مشبوبة إلههم القومي الخاص، وأن تكون

لهم دولتهم القومية.

وما من اضطهاد أو عذاب مهما بلغ من أمره، يمكن أن يسوغ نبذ هذه الرسالة العالمية من أجل القومية، وهي اسم آخر للقبلية التي هي أصل مصائبهم جميعاً.

وإنه لعلى أعظم جانب من الخطر لمستقبل الإنسانية، أن تدرك مبلغ التشويه الذي أصاب عقيدة التوحيد العالمية.

فما كان من الممكن قط ـ بدون تأثيرها ـ أن تقوم الحرية الإنسانية في الجماعة الديمقراطية، ولا أن تبقى، وما من سبيل إلى إنقاذ الجماعة الإنسانية إلا بالعالمية.

فإذا لم تعد الكنائس المسيحية إلى مبدئها المركزي، وتجعله مبدأها المركزي فيما تعمل، فإنها ستزول أمام عقيدة جديدة عالمية، لابد أن تبرز من بين الخراب والآلام، التي يسببها تهافت القومية الآتي لا محالة.

سادساً: إن دعاة القومية لا يكتفون بعزل الدين عن الحياة، بل يقفون موقف العداوة للتيار الإسلامي، والمعارضة لكل حركة إسلامية قوية، تعمل على استعادة نظام الإسلام، وتنادي بالعودة إلى تعاليمه والاعتصام بحبله، والتكتل تحت لوائه، وهذه العداوة من القوميين للإسلام منطقية لأمرين:

الأول: إن هذه الخصومة والعداوة نتيجة طبيعية للمقدمات التي ذكرناها من قبل باعتبارها عناصر لازمة للقومية أو مرتبطة بها، من إعلاء الرابطة القومية على الرابطة الدينية، واحتقار الأخوة الإسلامية، والمناداة بدولة علمانية لا دينية، ومعارضة الوحدة الإسلامية، وتمزيق الأمة الإسلامية إلى أمم

وقوميات متعارضة ...إلخ.

الثاني: إن هذه القوميات في عالمنا الإسلامي إنما بذر بذرتها فيه، وتعهدها ونماها هو التبشير والاستعمار، وقد اختار تلاميذه في أول الأمر لخدمة هذه القضية من غير المسلمين ليهدم بهم الخلافة الإسلامية في تركيا، التي أذلت الغرب النصراني يوماً ما، وطرقت أبواب فيينا سنة ١٦٨٣م، ثم ليهدم بهذه القوميات الجديدة أي أمل في وحدة إسلامية مستقبلة؛ فلا عجب أن رأينا أنطون سعادة مثلاً يدعو إلى قومية سورية، وسلامة موسى يدعو إلى قومية مصرية، وميشيل عفلق وجورج حبش يدعوان إلى قومية عربية، ومن تكليف الأشياء ضد طباعها أن تطالب هؤلاء الدعاة النصارى الأقحاح بالولاء للإسلام، ورسالة الإسلام، وأخوة الإسلام.

ولقد بدأ هذا الخطر بالقومية الطورانية، التي تبناها حزب (الاتحاد والترقي) في تركيا، وانتهى أمرها بفصل العرب عن دولة الخلافة، وقيام الحرب بين الأخوين المسلمين يقاتل أحدهما الآخر بقيادة الكفار وتوجيههم، ووحي المستعمرين الصليبيين وتدبيرهم، وما أمر الثورة العربية ودور لورانس فيها ببعيد.

ولقد آتت هذه العصبية القومية الطورانية ثمراتها، فألغيت الخلافة، وهدمت هذه الفلسفة الضخمة للإسلام، وتمزقت الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات ومزق وأشلاء تنتسب إلى أوطان وقوميات شتى، لاتستطيع أن تخيف.

قال صاحبي: ولكن أليست هذه الأفكار قد نبتت في ديار الإسلام نفسها، وبوحي من تفكير أبنائها أنفسهم، فلماذا ننسبها إلى الأجانب

المستعمرين ونجعلها (بنت سفاح) لا بنت حلال؟

قلت: إن هذه الأفكار قد جلبت بذورها إلى ديارنا جلباً، وتولى أعداؤنا زرعها في تربتنا بأيديهم، وقام عليها تلاميذهم وأنصارهم وعبيد مدنيتهم، فليس ما نقوله زعماً ندعيه، بل هو ما يعترف به الأجانب أنفسهم والقوميون ذاتهم، وما يؤيده التاريخ والواقع والمقارنة بين الأمس واليوم.

يقول الأستاذ برنارد لويس رئيس قسم التاريخ في كلية الدراسات الإفريقية والشرقية بجامعة لندن: (كانت الإمبراطورية العثمانية آخر وأطول الإمبراطوريات الإسلامية العالمية الكبيرة التي حكمت الشرق الأوسط، منذ أيام الخلفاء الراشدين، وفي هذه الأمبراطورية كان ولاء المسلمين الأساسي للإسلام، وللدولة التي تجسد واقع الإسلام السياسي، وللخلافة التي اكتسبت الصفة الشرقية بالمبايعة على مرور الزمن، والتي كانت تسوس أمور الناس، وكان المعارضون والمتمردون والثائرون يسعون لتغيير الوزراء أو الحكام أو حتى الخلافة الحاكمة كلها، ولكنهم لم يسعوا أبداً لتغيير أساس الولاء لدولة الإسلام ولوحدة هويته)[1].

ويتحدث عن العرب وموقفهم داخل الخلافة العثمانية فيقول: (لقد كانوا على علم باختلاف لغتهم وثقافتهم وذكرياتهم التاريخية عن الترك، ولكنهم لم يبدوا أي رغبة جدية بالانسلاخ عن الدولة العثمانية، ولم يعترضوا على وجود سلطان تركي، بل على العكس من ذلك كان من المحتمل أن يستغربوا وجود غيره على رأس الحكم العثماني، ولقد كانت فكرة قيام الدولة على أساس

(١) من كتاب: (الغرب والشرق الأوسط): ١٠٨، ١٠٩.

الأرض والوطن القومي غريبة أجنبية بالنسبة لهم حتى إن كلمة (Aralua) ليس لها مثيل في اللغة العربية، وكذلك الأتراك لم يخترعوا كلمة (تركيا) إلا حديثاً، وهي من أصل أوربي، أما العرب فلم يخترعوا تعبيراً جديداً، بل اكتفوا بالتعبير الذي يدل على جزيرة أو شبه جزيرة العرب)[1].

هذا ما كان عليه حال المسلمين أتراكاً وعرباً، قبل أن يطل شيطان القومية العلمانية برأسه، فانظر كيف بدأ إبليس الخبيث يدخل إلى صفوف المسلمين؟

يقول المؤرخ المذكور: (ولقد تسربت القومية العرقية من أواسط وشرق أوروبا عبر أقنية عدة)، ولقد كان اللاجئون الهولنديون والمجريون ـ على الغالب ـ أول الناقلين، عندما ذهبوا إلى تركيا، بعد فشل ثورتهم سنة (١٨٤٨م)، فلقد بقي قسم كبير منهم فيها، واعتنقوا الإسلام، واحتلوا مناصب هامة في الدولة العثمانية، وكان أحدهم الكونت قسطنطين بورزيسكي، وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين باشا (!) ولقد نشر سنة ١٨٦٩م كتاباً بالفرنسية في إستنابول اسمه (أتراك الأمس وأتراك اليوم)، وفي الكتاب جزء كبير يشكل تقريراً للسلطان عن المشاكل الحاضرة في الإمبراطورية واقتراحات حلها، وبه جزء تاريخي يضم دراسة أجراها المستشرقون الأوروبيون عن التاريخ القديم للشعب التركي، وبه يؤكدون دور الأتراك الإيجابي الخلاق في التاريخ، ولقد حاول بورزيسكي جهده لإثبات أن الأتراك هم من العرق الأبيض مثل شعوب أوربا، وينتمون لما أسماه العرق (الطوراني ـ الآري).

---

(١) نفس المصدر: ١٠٩، ١١٠.

ولقد عمل الكونت بورزيسكي على نقل القومية البولونية، ووضعها في قالب تركي، وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الأوروبيين الباحثين في الشؤون التركية، ولقد وصلت نتائج أبحاث هؤلاء إلى المجتمع التركي عن عدة طرق، وكان لها تأثير هام على الذهنية التركية، خصوصاً في تقدير التاريخ التركي القديم، والاعتقاد بالهوية المميزة والمركز اللائق في التاريخ، ولقد كان الأتراك أكثر من العرب والعجم نسياناً لتاريخهم الماضي، فلقد كانوا لايفكرون بأية هوية أخرى غير الإسلام، ولكن المستشرقين ـ عن قصد أو عن غير قصد ـ ساعدوا الأتراك على استعادة هويتهم القومية الضائعة، وعلى الدعوة إلى حركة تركية جديدة)[1] .

ولم تكن هذه النزعة مقبولة لدى جماهير المسلمين أول ما ظهرت، فقد أنكروها وهاجموها بقوة وصراحة.

وعندما ثارت القومية الألبانية سنة ١٩١٢م، أثارت معها حملة من الاستنكار قام بها الشاعر محمد عاكف المسلم الوطني المعارض للقومية، وكان هو من أصل ألباني قال: (إن ملتكم هي الإسلام، فما هذه القومية القبلية؟

هل العرب أفضل من الترك، أو أن اللاظ أفضل من الشركس والكرد؟

أم أن الفرس أفضل من الصينيين؟ بماذا يفضلونهم؟

ماذا دهاكم؟ هل تقسمون بلاد الإسلام إلى أجزاء متعددة؟

إن الرسول الكريم نفسه سفه العصبية القبلية، وليس باستطاعة الأتراك

(١) «الغرب والشرق الأوسط»: ١٢٦، ١٢٨.

العيش بدون العرب، ومن يقول غير هذا فهو مجنون، والترك بالنسبة للعرب عينهم اليمنى، وساعدهم الأيمن، فلتكن (ألبانيا) لكم إنذاراً، ما هذه السياسة المتخبطة؟ وما هو هذا الهدف الشرير؟!

اسمعوها مني، أنا الألباني .. لا أقول أكثر من هذا .. أسفي على بلادي المبتلاة)![1] .

ومثل محمد عاكف في موقفه الشاعر الفيلسوف المسلم الهندي الدكتور محمد إقبال، الذي تنبه في وقت مبكر لدخول هذا السرطان في دنيا المسلمين، ونبههم على خطره وسوء أثره فهو يقول: (لقد هاجمت فكرة القومية منذ الأيام التي لم تكن فيها القومية معروفة في الهند أو في العالم الإسلامي، ومنذ البداية شعرت بوضوح من خلال قراءاتي لكتابات المؤلفين الأوروبيين بأن خطط أوروبا الاستعمارية كانت تهدف إلى الدعوة للقومية لتفرقة صفوف الناس لأن ذلك سلاح فتاك، كانوا في أشد الحاجة إليه، واقتضت هذه الحاجة الدعوة إلى مبادئ القومية، حسبما جاءت به أوروبا في البلاد الإسلامية، من أجل تحطيم الوحدة الدينية القائمة بين المسلمين).

قال صاحبي: ولكننا بالدعوة إلى القومية العربية مثلاً قد حللنا مشكلة كبيرة كانت أعقد من ذنب الضب، تلك هي مشكلة العربي غير المسلم، الذي يعيش معنا في ديارنا والذي يساكننا الأرض، ويقاسمنا السراء والضراء، ويشاركنا الآلام والآمال؛ ففي إطار الوحدة القومية تذوب الفوارق الدينية، وتنحل العقد الطائفية، فلا مجال لقائل في الوطن العربي مثلاً أن يقول: (أنا

---

(١) نفس المصدر ١٣٥، ١٣٦.

مسلم أو نصراني)، وإنما قول الجميع: (أنا عربي).

قلت: إنما يكون ذلك حلاً حقيقياً يوم يتخلى المسلم عن إسلامه، والنصراني عن نصرانيته، ويحيا كل منهما بلا دين، أما إذا ظل المسلم مسلماً؛ فإن دينه يحتم عليه أن يؤثر رابطته على كل رابطة، وعقيدته على كل عقيدة، ويضحي في سبيله بكل ما يتشبث به الناس ويحرصون عليه من علائق وصلات، وحسبنا قوله تعالى: ﴿**قلْ إِن كان أباؤكم وأبناؤُكم وإِخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كسادَها ومساكنُ ترضونَها أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ في سبيلِهِ فتربَّصوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِهِ واللهُ لايهدي القومَ الفاسقينَ**﴾[التوبة: ٢٤]، وقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١). ولهذا كان شعار العربي المسلم قديماً:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وإذا ظل المسيحي مسيحياً، فإن دينه يأمره أن يجعل رابطته الدينية فوق كل علاقة، ففي إنجيل لوقا يقول المسيح: (إن من يحب والده أو أمه أكثر مني لا يستحقني! والذي يحب ابناً أو ابنة أكثر مني لا يستحقني أيضاً!).

وعندما قيل للمسيح مرة: (إن أمه وإخوته يقفون في الخارج يريدون التحدث إليه قال: أمي؟ من هي أمي؟ ومن هم إخوتي؟ ثم أشار إلى تلاميذه وقال: أنتم أمي وأنتم إخوتي).

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس بن مالك في كتاب الإيمان (١٥)، ومسلم في الإيمان (٤٤/٦٩، ٧٠).

وعندما جاء أحد تلاميذته واستأذنه في الذهاب لدفن أبيه قال له: (اتبعني واترك الموتى يدفنون موتاهم!).

وإذن يكون القول بأن الدعوة القومية قد حلت مشكلة اختلاف الأديان في الأمة الواحدة، من السطحية الفارغة، أو النفاق السياسي، الذي يهتم بمحض الدعاية والإعلان، لا بعلاج القضية من الجذور.

قال صاحبي: وكيف إذن نحل مشكلة الأقليات غير المسلمة في المجتمع العربي؟

قلت: بما حلت به طيلة ثلاثة عشر قرناً مضت أو تزيد، أعني بأن يبقى كل ذي دين مستمسكاً بدينه، حريصاً على تعاليمه، مقيماً لشعائره، في غير إكراه ولا ظلم ولا رياء، مع إقرار حق الأغلبية في أن تحكم بالشريعة التي ترتضيها، وتراها نابعة من ضميرها، متفقة مع عقيدتها، يظلل الجميع ـ من الأقلية والأكثرية ـ روح الإخاء والتسامح والعدل في الحقوق والواجبات، وليس ذلك مجرد تملق سياسي، أو نفاق اجتماعي، وإنما هو دين لا يسع المسلم مخالفته أو الإعراض عنه إلا إذا أعماه الهوى، وغره با لله الغرور.

والإسلام بالنسبة للمسلم دين وعقيدة وعبادة، وهو لغير المسلم ـ في الوطن العربي خاصة ـ ثقافة وحضارة؛ ولهذا وجدنا بعض المسيحيين الكبار يدعون إلى تطبيق الشريعة بحماس أكثر من حماس بعض المسلمين مثل الزعيم السوري المعروف فارس الخوري، رئيس وزراء سورية الأسبق[1] .

(١) انظر: فصل (الأقليات الدينية والحل الإسلامي) من كتابنا: (بينات الحل الإسلامي وشبهات

هذا حلنا لمشكلة العربي غير المسلم، فقل لدعاة القومية: كيف تحلون ـ معشر القوميين ـ مشكلة المسلم غير العربي داخل الوطن وخارجه؟

لقد ناديتم بالقومية من أجل ملايين من غير المسلمين داخل الوطن العربي، ونسيتم أن هناك أكثر منهم ملايين من غير العرب يسكنون هذا الوطن، كالأكراد في العراق، والبربر في شمال إفريقيا، لا يحل عقدتهم إلا التنادي بالإسلام وأخوة الإسلام، وكفى بمشكلة الأكراد في العراق درساً قاسياً لدعاة القومية لو كانوا يفقهون.

ثم خسرتم من أجل هذه الملايين القليلة من العرب غير المسلمين ولاء مئات الملايين من المسلمين غير العرب في آسيا وإفريقيا، وهم الصديق الطبيعي للعرب، بل هي الأخ الشقيق في الحقيقة، وذلك لأن الإسلام من شأنه أن يفرض عليهم حب العرب وتقديمهم على أنفسهم، فمنهم الرسول الذي أرسل رحمة لهم وللعالمين، وبلسانهم نزل الكتاب المبين ومنهم كان حماة الإسلام وهداته الأولون، الذين حملوا إليه نور الإسلام، وهدي القرآن وفي أرضهم ـ أعني العرب ـ تقع الكعبة البيت الحرام الذي يتوجه إليه المسلم في اليوم خمس مرات فريضة من الله، ويقصده في العمر مرة على الأقل، تلبية لأمر الله، وفي أرض العرب كذلك مسجد النبي ﷺ وقبره الشريف، وفيها أيضاً المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

كما أن المسلم غير العربي يلزمه دينه أن يحفظ من لغة العرب ما يصحح به عبادته، ويرغبه أن يتقنها حتى يتلو بها كتاب ربه، ويروي بها سنة نبيه،

العلمانيين).

ويوجب على طائفة منهم أن يتعمقوا في معرفتها ليتفقهوا بها في دينهم، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

الحق أن الإسلام يعرب المسلم العجمي، يعرب فكره وقلبه أولاً، ثم يعمل على تعريب لسانه ولغته، وإذا كان الجناح الإفريقي اليوم يضم الأغلبية العظمى من العرب ـ وهم من غير الجزيرة ـ فما ذاك إلا من أثر الإسلام الذي دخل هذه البلاد ـ مصر والسودان وبلاد المغرب العربي ـ فنقلها من قومياتها ولغاتها وأديانها القديمة إلى دين جديد ولسان جديد ـ دين الإسلام ولغة القرآن.

ولقد رأينا في باكستان والصومال ونيجيريا وغيرها من البلاد الإسلامية، في آسيا وإفريقيا هيئات وجماعات تقوم على تعليم اللغة العربية ونشرها حباً للإسلام، وخدمة للقرآن، ولقد حدثنا الذين زاروا هذه البلاد[1] وخالطوا أهلها المسلمين أن كثيراً منهم يودون من صميم قلوبهم أن يهجروا لغتهم المحلية، ويتحولوا إلى العربية لتكون لغة تخاطبهم ولغة دولتهم الرسمية.

ويجدر بي أن أسجل هنا عدة سطور من رسالة قيمة عن (مشاكل التعليم العربي في نيجيريا) كتبها أحد علماء نيجيريا المسلمين المخلصين، الذين هيأ الله لهم فرصة تعلم العربية والقيام على تعليمها، ذلكم هو السيد (آدم عبد الله الألودي) يقول في هذه الرسالة تحت عنوان: (فصل اللغة العربية عن الإسلام): (يمتاز الإسلام عن سائر الأديان باندماج اللغة العربية فيه اندماجاً لا يقبل تحليلاً ولا انفكاكاً، وقلما يوجد في تاريخ الأديان دين ساعد على نشر لغة كالإسلام، وهو نفس الأمر الذي عقد للعرب لواء الزعامة، التي لا

(١) كتبت ذلك قبل أن أزور هذه البلاد، وألمس ذلك بنفسي.

ينازعهم فيها جنس آخر من العالم الإسلامي مهما أوتي من قوة في الإيمان، وفهم في القرآن، ويقين في الإسلام، فمكانة العرب في الإسلام ـ أمس واليوم وغداً ـ مكانة الروح من الجسد، أو الرأس من اليدين) ولقد صدق الأثر القائل: (إذا ذل العرب ذل الإسلام،وإذا عز العرب عز الإسلام).

(ولقد انتشر اللسان العربي مع انتشار الإسلام، فطغت العربية على الرومية في الشام، وعلى الفارسية في العراق، وعلى القبطية في مصر، وعلى البربرية في شمال إفريقيا، ونزع الإسلام لغتهم من خلايا ألسنتهم، ولقنهم العربية فاستساغوها وأجادوها، واستعربوا بها كما استعرب إسماعيل عليه السلام أول العرب المستعربة).

(وكذلك سارت العربية جنباً إلى جنب مع اللغات الوطنية في بعض الأقطار، كالهند والترك وغرب إفريقيا).

(أما نظرية فصل اللغة العربية عن الإسلام، فمثلها كمثل نظرية فصل الدين عن الدولة، التي ظهرت لأول وهلة في العالم الإسلامي بصورة ضئيلة، ولم تلبث أن صارت أمراً هائلاً مثيراً لكثير من الشجون، كشرر يبدأ صغيراً، فلا يلبث مع هبوب الرياح أن يصير سعيراً يتلظى) ا.هـ.

ما الذي جعل هذا النيجيري الإفريقي يحب العرب ويقدس لغتهم، ويقدمهم على قومه، ولغتهم على لغته، ويعقد لهم لواء الزعامة في العالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها؟؟ إنه الإسلام وحده .. فيا عجباً كيف نضحي بهذه الشعوب الإِسلامية في آسيا وإفريقيا، ونقدم أخوتها لنا

وحبها إيانا ـ نحن العرب ـ قرباناً على مذبح القومية ؟؟

لقد زرت تركيا بعد هزيمة حزيران (يونيه) ١٩٦٧م، فوجدت الشعب التركي الشقيق ـ وبخاصة أهل الدين فيه ـ يغلي كالمرجل، غيظاً وغضباً على اليهود وانتصاراً للعرب، برغم ما بذل الاستعمار والماسونية وغيرهما من جهود في سبيل تمزيق الروابط بين العرب والأتراك.

وحدثني بعض أعضاء الوفد الذي زار البلاد الإسلامية من علماء العراق، عقب نكبة ١٩٦٧م كيف كانت تستقبلهم الألوف وعشرات الألوف، منادين بالجهاد، مطالبين أن يفسح لهم المجال؛ ليساهموا بدمائهم في إنقاذ أولى القبلتين وثالث المسجدين المعظمين، ولم يكونوا يخلصون من زحام الجماهير المتحمسة الغاضبة إلا بعسر شديد.

وحدث أن وقف واحد من الوفد يتحدث في أحد المحافل في باكستان عن الأخوة والمساواة التي جاء بها الإسلام، وكيف ساوى بين العربي والعجمي، وجعلهم كأسنان المشط الواحد، فقام بعض كبار الموجهين منهم، وقال: أما نحن فنقول: إن العرب هم سادتنا، وهداتنا، وحملة الإسلام إلينا، ولولاهم لكنا وثنيين.

ويذكر الأستاذ اللواء محمود شيت خطاب: أن سفير الأفغان في بغداد قال له بعد نكبة حزيران (يونيه) ١٩٦٧م: لقد سقطت كابول عاصمة الأفغان بيد العشائر الأفغانية، التي طوقتها من كل جانب، وهي تهتف: لقد اندحر سادتنا العرب، واحتل اليهود القدس الشريف، فابعثونا للجهاد وقبضوا

على وزير الخارجية الأفغاني، وحاولوا أن يذبحوه ذبح الخراف.

ولم يقف تأييد المسلمين للعرب عند الشعوب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الزعماء والرؤساء الذين لا تحركهم نزعات قومية أو إلحادية.

قال الرئيس الباكستاني محمد أيوب خان: عندنا مشكلتان: مشكلة فلسطين، ومشكلة كشمير، ولن نعترف بإسرائيل حتى ولو اعترف بها العرب.

وقال زعيم نيجيريا الراحل ورئيس وزرائها الشهيد أحمدو بيللو، لمحرر صحيفة سأله: هل يقبل مواجهة وزيرة خارجية إسرائيل؟ فقال: نعم، على شرط واحد أن أطلق عليها الرصاص!.

وقال السيد أدن عبد الله رئيس جمهورية الصومال: إن إسرائيل أعدى أعدائنا ولا نرضى بأقل من قذفها في البحر[1].

وإذا كانت بعض حكومات البلاد الإسلامية لها علاقة بإسرائيل، فذلك ثمرة لشجرة القومية العلمانية الملعونة في القرآن والسنة، وكلما اقتربت هذه الحكومات من الإسلام اقتربت من العرب وابتعدت عن إسرائيل.

على أن موقف الشعوب الإسلامية جميعاً لاريب أنه مع العرب قلباً وقالباً، مهما يكن موقف حكوماتها من العرب أو من إسرائيل.

فهل من المصلحة أو العقل أن نخسر تأييد ومساندة أكثر من خمس مئة مليون مسلم في العالم الإسلامي من أجل بضعة ملايين من غير المسلمين في

---

(١) نقل هذه النصوص عن الصحف اللواء خطاب في كتابه: (طريق النصر في معركة الثأر) ص ٤٧١.

العالم العربي؟

إن لغة الأرقام تقول: لا، ثم لا.

ثم قلت لصاحبي: هل تريد الصراحة؟

قال صاحبي: نعم .. ففي الصراحة راحة كما يقولون.

قلت: إذا أردت الصراحة فإن أكثر غير المسلمين في العالم العربي لا يفرقون كثيراً بين العروبة والإسلام، فالعروبة في أذهانهم مختلطة بالإسلام، غير منفصلة عنه، والإسلام عند هؤلاء عربي، والعروبة إسلامية، والتفرقة النظرية بين الأمرين لا تقنعهم، والإقناع الجدلي لا يشفي صدورهم، فمن كان منهم حسن الظن بالإسلام؛ فهو حسن الظن بالعروبة، ومن ساء ظنه بالإسلام وأوجس منه خيفة، أو أضمر له حقداً؛ كان ذلك موقفه من العروبة.

هل تريد أن أضرب لك مثلاً؟

قال صاحبي: نعم .. فالأمثلة تفسر المبهم، وتضع النقاط على الحروف.

قلت: لعلك تذكر أنطون سعادة، مؤسس الحزب القومي السوري المعروف بعدائه الصريح للعروبة والقومية العربية. أتعرف السر الكامن وراء هذه العداوة؟ لقد أُفصح عنه بعض الإفصاح في بعض مقالاته وتصريحاته، كقوله في إحدى مقالاته المنشورة في الحلقة الثانية عشرة من سلسلة الأبحاث القومية الاجتماعية ما نصه: (لبست الحزبية المحمدية ـ أقول: المحمدية الإسلامية؛ لأني كما أعلنت سابقاً أعتبر الإسلام شاملاً المسيحيين وأهل الحكمة أيضاً ـ في الرجعية الجديدة لباس (القومية العربية)، وارتكزت على

مرتكزين أساسيين: هما اللغة العربية، والدين المحمدي، اللذان نشرهما الفتح العربي المحمدي) ص١٣.

ونسبة الإسلام إلى (محمد)، واعتبار المسلمين (محمديين) من بنات أفكار المستشرقين والمبشرين كما هو معلوم.

وفي إحدى محاضراته التي احتوتها نشرة التعاليم والشروح للمذهب يقول:

(يوجد عالم يدعى العالم العربي، والسبب في دعوة هذا العالم كذلك سبب لغوي ديني في الأساس فهنالك عالم عربي باللسان، ويمكن أن نتدرج ونقول: عالم عربي بالدين الذي يحمل كثيراً من بيئة العرب وحاجاتها ونفسياتها، والذي هو أهم عامل يصل بين أمم العالم العربي اللسان) ص ١١٣.

ومن غرائب العقد النفسية وآثارها في هذا الرجل أنه كان يدعو إلى اتحاد سوريا والعراق تحت اسم (الهلال الخصيب)، وقد تبنى هذه التسمية واستعملها عدة سنوات، ثم بدا له في أواخر أيامه، فهاجم هذه الفكرة وتسميتها بمقالة نارية تحت عنوان: (نحن سوريون لا هللخصبيون) فما سر ذلك؟ أنه تذكر أن الهلال يعتبر في أوروبا وفي بعض البلاد الشرقية رمزاً للإسلام، فتوهم أن دعاة اتحاد الهلال الخصيب إنما مالوا لهذه الفكرة تحت تأثير التعصب الديني والحزبية المحمدية .. أرأيت؟؟

وبهذا يا صاحبي تعلم أن التفريط في الإسلام من أجل إرضاء الأقلية غير الإسلامية في البلاد العربية، نتيجته: أن يخسر المسلمون إسلامهم، دون أن يكسبوا غير المسلمين، على أن المسلم الحق لايبيع دينه بملك المشرق والمغرب،

ولا يشتري سخط ربه برضا أهل الأرض جميعاً، فكيف يبيع دينه بوهم لا واقع له، وبسراب يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً؟

obeikandl.com